توظيف التراث في شعر عبد العزيز المقالح

د. عادل بوديار
أستاذ محاضر – جامعة تبسة.
boudiar1973@gmail.com

مُلخّص البحث

[يشكل التراث رافدا مهما من روافد الشعر العربي المعاصر، فهو يمثل المعين الذي يفيض بقدر هائل من المعاني والدلالات التي تمنح القصيدة الشعرية طاقات تعبيرية واسعة؛ ذلك أن المعطيات التراثية التي يلجأ إليها الشاعر لها تأثير عميق في النفس الإنسانية يرقى بها إلى مرتبة القداسة.

وقد لجأ الشعراء المعاصرون إلى توظيف التراث في إنتاجهم الشعري لاعتقادهم أن العودة إلى التراث يحمل في طياته الرغبة في تذكر الماضي وربطه بالحاضر والتطلع من خلاله إلى المستقبل، حيث أصبح التّراث الإنساني لدى هؤلاء الشعراء شكل جانبا من تكوينهم الشّعري، ذلك أن تجربتهم عدت محاولة جاهدة لاستيعاب الوجدان الإنساني عامة من خلال إطار حضارة العصر.

ويعد الشاعر اليمني عبد العزيز المقالح من الشعراء المعاصرين الذين وظفوا التراث بأشكاله المختلف في نصوصهم الشعرية؛ وهو ينطلق في ذلك من فكرة أن استلهام العناصر التراثية في التجربة الشعرية المعاصرة يثري المعنى الشعري ويكثفه، ويخرج القصيدة من التعبير المباشر إلى التعبير الرمزي الذي يفتح الباب على مصراعيه أمام آفاق التأويل.]

تمهيد:

يعد التراث أحد أم الروافد التي أمكن للشاعر المعاصر تطويعها للتعبير عن تجربته الشعرية حيث وجد في مجموع الإنتاج الفكري والحضاري والتاريخي الذي

ورثته الإنسانية مادة ثرية بإمكانات فنية أمدته بطاقة تعبيرية لا حدود لها، ثم إنه أدرك أنه حين يقبل على معين التراث فإنه سوف يمد تجربته الشعرية بمعين لا ينضب من المعاني والأفكار في ظلّ واقع فكري واجتماعي وسّياسي مغمور بالضبابية والغموض، ويبدو أن الشاعر العربي المعاصر لم يدرك ماهية التّراث إلاّ بعدما ظهر جيل جديد احتكّ بالثّقافة الغربية وتأثر بها تأثرا عميقا وقويّا، اتجه إلى مثاقفة التراث وهو على يقين أن هذا التراث . الذي يرتد إلى أزمنة ماضية بعيدة . سوف يحرر ذاته التي رفضت أن تخنق ويكبل طموحها، فكان استلهام التراث محاولة لهذه الذات تفريغ كبتها العميق وترجمة انفعالاتها وتجسيد أفكارها بطرح موقفها محاولة التخلص من واقعها المرير، والمقالح[1] واحد من الشعراء المعاصرين الذين رسخوا في أشعارهم درجة عالية من العلاقات البنائية والتكثيف الشعري عندما لجا إلى التراث واتّخذه وسيلة للعودة بالذات الشاعرة إلى طبيعتها الأولى باعتبار.

1. عوامل توظيف التراث في الشعر العربي المعاصر:

بدأت علاقة الشاعر العربي بالتراث مع الإحيائيين الذين تعاملوا مع الموروث بطريقة تسجيلية انحصرت في المعارضات الشعرية والتسجيل التاريخي للوقائع والأحداث، وهذا التعامل تميز بالسطحية والشكلية والقصور المنهجي الذي رافق هذه المدرسة التي اتبعت منهجا تسجيليا قائما على التدوين والتسجيل والحكاية غير أن الترجمة من اللغات الأجنبية والهجرات إلى بلاد الغرب كانت أهم الملامح التي ساهمت في توجيه التجربة الشعرية الحديثة نحو تعاملها مع التراث بمختلف أبعاده وروافده بطريقة التي تختلف شكلا ومضمونا عن سابقاتها حيث اتبع روادها منهجا توظيفيا، و((منهج يعايش التراث، ويعيش فيه، ويوظفه في قصائده لأهداف إنسانية واجتماعية عليا))[2]، وهكذا نجد أن العناصر التراثية تأخذ جانبها الأسطوري في الشعر المعاصر من خلال طريقة توظيف الشاعر لها فمثلا نجد سيزيف رمز للعذاب الشقاء، والقمح رمز للخصوبة والحجر للجماد والموت والبحر رمز للمغامرة والمستقبل والنار رمز للثورة والانقلاب والرماد رمز للنهاية والعدم والرمل

رمز للزمن[3]، ويبدو أن هناك عوامل عديدة كانت وراء شيوع ظاهرة استدعاء العناصر التراثية في الشعر العربي المعاصر منها:

أ- عوامل فنية:

وجه الشاعر العربي المعاصر ناظره تلقاء الماضي البعيد وذهب إلى مثاقفة التراث وتفعيله في تجربته الشعرية ((بوصفه مُعطى حضاريا وشكلا فنيا في بناء العملية الشعرية))[4]، حيث وجد الشاعر المعاصر نفسه إلى إضفاء نوع من الموضوعية والدرامية على الشكل الفني لذلك ((استعار بعض تقنيات الفنون الموضوعية الأخرى، كفن المسرحية وفن القصة، وفن السينما، فشاعت في القصيدة الحديثة تقيات تلك الفنون كالحوار وأسلوب القص، تعدد الأصوات، والمونولوج الداخلي.. واستخدام الشخصيات التراثية كمعادل موضوعي لتجربته الذاتية))[5]، لتتخذ القصيدة العربية المعاصرة بذلك شكلا جديدا في بنيتها، وتنعطف عن ببيئتها المتعارف عليها .. ((فانفجرت انفجارا لا عهدا لها بمثله وقد جاء هذا الانعطاف في الحقيقة بمثابة الصدى المباشر للمفارقات التي هزت الذات وعجزت عن الصمود في وجه طاقته الحضارية))[6].

وبهذا التوظيف الجديد للتراث برز موقف الشاعر المعاصر من ماضيه الإنساني وتحددت القيم الجمالية للتجربة الشعرية المعاصرة، حيث أصبح التّراث الإنساني لدى الشّاعر المعاصر جانبا من تكوينه الشّعري، ذلك أن تجربة الشّاعر تمثل في جانبها الفني محاولة لاستيعاب الوجدان الإنساني عامة من خلال إطار حضارة العصر وتحديد موقف الشّاعر منه كإنسان معاصر[7]، حيث نجد أن الشاعر المعاصر صار على وعي بأن المخزون الشعري يمتلك من ثراء المعاني ما يجعله يحرر الشاعر من التعبير المباشر، ويمنح القارئ فرص التأويل، بل ((إن إحساس الشاعر المعاصر بمدى غنى التراث وثرائه بالإمكانات الفنية والمعطيات والنماذج التي تستطيع أن تمنح القصيدة المعاصرة طاقات تعبيرية لا حدود لها فيما وصلت أسبابها، ولقد أدرك الشاعر المعاصر انه باستغلاله لهذه الإمكانات يكون قد وصل تجربته بمعين لا

ينضب من القدرة على الإيحاء والتأثير، وذلك لأن المعطيات التراثية تكتسب لونا من القداسة في نفوس الأمة ونوعا من اللصوق بوجدانها))[8]، وهو ما يجعل تلك المعطيات تشكل إرثا مشتركا بين الناس جميعا، لتتحول القصيدة من لحظة مكاشفة شعرية آنية تكشف همًّا فرديا إلى لحظة مكاشفة شعرية خالدة تفرِّج غمًا جمْعيًا يمتد من الزمن الماضي إلى الحاضر ويتطلع إلى المستقبل لتستوعب التجربة الشعري آلام الإنسان وآماله، لذلك ليس ((غريبا أن نجد الشاعر يفسح المجال في قصيدته للأصوات التي تتجاوب معه والتي مرت ذات يوم بنفس التجربة وعانتها كما عاناها الشاعر نفسه))[9] في لحظة من لحظات إندماجه بالكون.

ب- عوامل ثقافية:

ساهمت عوامل ثقافية مختلفة في توجيه الشاعر المعاصر نحو استلهام التراث من بينها الجهود التي بذلها رواد حركة الإحياء التي يعزى لها الفضل في نفض الغبار عن الإرث التراثي وتوجيه الأنظار صوبه، ثم حركة الترجمة عند العرب التي مثلت بوابة الانفتاح على الفكر الإنساني وتصوراته في التعرف على حضارات الشعوب وعاداتها وآدابها، فكانت عودة الشاعر المعاصر إلى التراث عودة تقوم استثماره في الإبداع الأدبي واستخدام ((الشخصيات التراثية كمعادل موضوعي لتجربته الذاتية حيث كان يتخذها قناعا يبث من خلاله خواطر وأفكاره))[10]، وهو يفعل ذلك لأن يدرك أن توظيف التراث سيضفي على عمله الإبداعي ((عراقه وأصالة ويمثل نوعا من امتداد الماضي في الحاضر وتغلغل الحاضر بجذوره في تربة الماضي الخصبة، كما أنّه يمنح الرؤية الشعرية نوعا من الشمول والكلية))[11]، ومثل هذه الثقافة الجديدة على الشاعر العربي والتي نتجت بفعل التواصل مع آداب المم الأخرى تلك التي رسمت معالم نهضتها انطلاقتها من مثاقفة تراثها كما حدث في عصر النهضة الأدبية والفكرية الأوروبية التي جعلت التراث هو الصوت الذي يصدح الشاعر في وجه مشكلات العصر.

ج- عوامل سياسية واجتماعية:

لقد وجد الشاعر المعاصر في التراث متنفسا مكنه من التعبير عن رؤاه وأفكاره السياسية والاجتماعية التي كان يسعى لتأسيسها، حيث كان المناخ والسياسي والاجتماعي لا يمنحان الشاعر مساحة من الحرية التي تمكنه من التعبير عن آراءه بحرية، لذلك سعى إلى إيجاد مخرج من مأزقه غذ الكلمة تبقى قلقة حرجة تحاول الخروج، فلم يكن له بد من التخفي وراء ستار يحميه ويفسح المجال على مصراعيه أمام التأويلات التي تستقر في نفس المتلقي بحسب إيمانه السياسي والاجتماعي.

ويبدو أن الشاعر الذي ظل دائما يكبت في نفسه آماله وآلامه، ويحشرج بها في نفسه، ويخشى أن يسمع له صوتا، أو أن يتردد له صدى في سماء الحقيقة، قد وجد أخيرا في التراث ((الملاذ لكل تهويمات نفسه القلقة الباحثة عما يسد الفراغ واعتبره البديل الذي يمكن أن يمده بالطاقة السحرية التي تمده بطابعها النظري وغذاء وعيه الشعري، لهذا كانت الأسطورة في شعره تجسد حالة من الانكسارات وما يحتاج إليه الضمير الإنساني من تناقضات وأزمات حضارية))[12]، فكان التراث بهذا المعنى الملجأ الذي وفر للشاعر الحرية والأمان والاستقرار الفكري، وفسح أمامه الطريق ليعبر دون رهب أو خوف؛ فهو على يقين أنه سيجد في تراثه ((غذاء روحه ونبع إلهامه وما يتأثر به من النماذج فهو مطالب دوما باختيار سلسلة من نماذج الأدباء والأجداد من أسرة الشعر))13 حتى يعطي كلمته أبعادا مختلفة، فلا يتهم الشاعر بأنه ينتصر لنفسه أو يكشف المستور ليحقق منفعة ذاتية، وهو يفعل ذلك لأنه وجد التراث ((حقلا خصبا وزادا مثيرا للتعبير عن المعاني، والإحياء، والخصب، والجدب، والأهم من كل ذلك تعبيرهم بالأساطير عن واقعهم الأليم، وعن حياتهم الشخصية وظروف مجتمعهم وقضاياهم الراهنة))[14] التي كانت الأساطير وعاء حاويا لها، حيث أمكن للشاعر تطويع الرموز التراثية خدمة لما يؤمن به.

د- عوامل نفسية:

إن تعقيد الحياة المعاصرة وانهيار منظومة القيم الموجبة، وسيطرة البراغماتية على جميع تعاملات الإنسان المعاصر، تكدر صفو الروح الإنسانية الطاهرة جعلت

الشاعر كفنان يسعى إلى تحقيق توازنه النفسي يشعر بالغربة وسط مجتمعه الذي انقلبت فيه جميع الموازين؛ لما كان الشاعر حساسا فغن حاول الهروب من هذا الواقع المرير إلى عالم حالم بسيط الأحلام والآمال ((إنه يريد أن يبيع كل ما أكسبه في حياته المختصرة المتصنعة من خبرة ومهارة في مقابل يوم واحد من تلك الحياة الساذجة البكر، حيث الأشياء لم تفقد طزاجتها ولا حرارة صدقها))[15]، وهذا الشعور بالانفصام بين الشاعر المعاصر والعالم من حوله لم يكن السبب الوحيد في اغترابه ووحشته، بل إن الأنانية التي تمخضت عنها الحياة العصرية أفرزت اغترابا اجتماعيا نتج عن شعور الإنسان المعاصر بعدم إمكانية التواصل مع غيره، استحال العيش وفق الظروف الاجتماعية والثقافية القائمة.

لقد حاول الشاعر المعاصر أن يتعمق في البعد التاريخي للتجربة الإنسانية حتى يجد سبل الخلاص من زيف الحضارة، ويهرب من دنيا الواقع التعيس إلى عالم حالم رحب حيث الفطرة والسذاجة وصفاء الروح والحب الممتزج بالقداسة والبراءة، لذلك سعى أن ((يعيد النظر في التّراث لتفجير ما فيه من قيم ذاتية باقية روحية وإنسانية وتوطيد الرابطة بين الحاضر والتراث عن طريق استلهام مواقفه الروحية والإنسانية في إبداعنا العصري))[16]، ولعله كان يفعل ذلك وهو مدفوع بما كان يحتم عليه واجبه كفنان يتعامل مع واقعه بالأحاسيس والمشاعر، فقد ظل يصبو إلى السمو بالنفس حيث العلاقات الإنسانية الطاهرة الصافية والأحاسيس الطاهرة، التي لم تدنسها الطبائع والأهواء[17]، أين تكون هذه الإحساس شراعا يدفع بمركب الشاعر إلى الإبحار في الذاكرة الجماعية.

2 - استحضار التراث في شعر المقالح:

إذا تتبعنا التجربة الشعرية المعاصرة نجد أن الشاعر المعاصر حين وظف الأسطورة والشخصية الأسطورية استطاع أن يلغي الفواصل بين واقعه الراهن والواقع الأسطوري الضارب في أعماق الزمن، بل إن الشاعر يتوحد وتمازج مع البطل الأسطوري وغرضه، فتمازج مع السندباد وسيزيف وعشتار.. وأعاد صياغة العناصر

التراثية بدلالات حديثة وسحب تلك العناصر على رقعة الحاضر ووظفها توظيفا أسهم في تغيير مفهومها وشكلها.

أ- الأسطورة:

لقد استوعب الشاعر المعاصر المادة التراثية فسعى إلى توظيفها في شعره كقناع يستتر وراء عالمه الغامض للتعبير عن مواقفهم وواقعهم المرير، فمزج بين الحلم والواقع، وجعل شعره يتلون بألوان الألم والأمل، ومن أبرز عناصر المادة التراثية نجد الأسطورة التي استخدمها كتعبير حضاري شامل عن الاحتياجات الروحية والجمالية[18]، ولكن الأسطورة التي آمن بها الإنسان الأول عندما كان في رحلته إلى اكتشاف العالم وتسميته، لم تبق مهيمنة على المساحة الهامة التي احتلتها في تاريخ الفكر البشري؛ لأنها مع مرور الزمن شرعت في الأفول ((وعلى مهل أمعنت في المضي، جاءت الأديان لتنفيها، وتحل محلها، فاندحرت على مهل، غير أن الأديان نفسها سارت على نفس الدرب، واستعارت ذلك النموذج المشترك، حورته أحيانا، غيرت ملفوظاته بطريقة توهم بأنها لا تواصل النهل من الصورة النموذجية المنغرسة رسومها في قاع الذات البشرية مطلقا))[19]، بل إن هناك من ينظر إلى الأسطورة على أنها من الأديان غير الناس قاموا بتحويرها وتغييرها مع مرور الزمن فلم يبق منها غير الصورة الغرائبية التي وصلت غلينا، ومن الأساطير التي وظفها المقالح في شعره نجد:

- **أسطورة العنقاء (الفينيكس) (Phénix):**

وهي أسطورة تروي أنه ((طائر بديع بشبه النسر ريشه أحمر مذهب، مقدس لإله الشمس في القطر المصري، يظهر للبشر كل خمسمائة سنة، ويقطن بلاد العرب، إذا أشرف أجله على الانتهاء يضع بيضه في عشه ويموت .. وهناك رواية تقول إنه بعد مضي على العنقاء تحرق نفسها فوق كومة الحطب، ومن الرماد المتخلف تحيا من جديد ويتجدد شبابها لتعيش مرة أخرى))[20]، وإذا كانت الأسطورة عند البدائيين تمثل في ظاهرها عملية إخراج ((لدوافع داخلية في شكل

موضوعي، والغرض من ذلك حماية الإنسان من دوافع الخوف والقلق الداخلي، فإن استخدامها في الشعر لم يقلل وضعيتها تلك بل على العكس زاد تطويرها عن طريق إثارة الحس الجمالي الذي يؤدي بالضرورة إلى الإحساس بالترويح عن النفس والتخفيف من آلامها))[21]، يقول المقالح[22]:

سألت الطيور التي رافقت رحلة السندباد
عروس البحار عذبت كل عصر
متى تمسح الرعب عن عصرنا والرماد؟
(وعنقاؤنا) توأم المستحيل
أساطير جبل تولى
وأحلام جبل
متى تمنح الحائزين على دربها موعدا باللقاء؟

استدعى الشاعر أسطورة العنقاء ((التي تريد كل عام أن تولد من جديد، فتترك موطنها وتسعى صوب فينيقيا، وتختار نخلة شاهقة .. وتبني عشا، وبعد ذلك تموت في النار، ومن رمادها ينبعث طائر من جديد))[23]، ليعبر عن انبعاث الحياة من رماد الموت، ويؤكد على الثورة تولد من رحم الأحزان، وأنه لولا الألم والموت ما كان للإنسان أن يستطيع المقاومة، وأن عودة روح الأمل يكون بعد رحلة طويلة شاقة مليئة بألوان العذاب والمغامرة والرعب؛ لأن الشاعر حين يسترجع لحظات ألمه يجد في نفسه من الحوافز الدوافع ما يجدد يقينه بأن مشكاة الحق يخفت نورها ولكنها لا تنطفئ أبدا، فكلما وجدت هذه الشعلة ما يذكيها استعرت وازدادت نارا ونورا؛ أي إن الشاعر حين يصطدم بواقعه المرير يقف حائرا أمام معضلته التي ما عاد يحويها كلام، فما كان له بد غير الانطلاق إلى عالم الأساطير والشخصيات التاريخية ليكشف من خلالها أزمته ويصف ما يختلج من نفسه من عواطف الثورة والمقاومة والتحدي.

ب- الشخصية الأسطورية:

وظف الشاعر العربي المعاصر كثيرا من الشخصيات الأسطورية التي استلهمها من التراث في أشعاره غير أن الطاقة الرمزية التي كانت تحملها تلك الشخصية الأسطورية اختلفت في توظيفها من شاعر إلى آخر بحسب ثقافته وقدرته على تطويع الرمز الأسطوري الذي يتعامل معه، ويعد الشاعر عبد العزيز المقالح واحد من بين أهم الشعراء المعاصرين الذين وظفوا الشخصيات الأسطورية في أشعارهم بطريقة عكست مدى إدراكه للطاقة التعبيرية والرمزية لتلك الشخصيات، ومن أهم هذه الشخصيات التي وظفها:

1. شخصية سيزيف (sisyphe):

وهي شخصية تحمل طاقة رمزية دالة على الصراع المستمر، وعدم فقدان الأمل حتى الأخير، وقد ذكرت الأسطورة اليونانية أن سيزيف ملك كورنثة زج به في العالم السفلي بسبب هزيمته، فكان عقابه أن يصعد بصخرة عظيمة إلى قمة الجبل، ولكنها تنزلق منه وتعود من جديد إلى الأسفل، ويظل سيزيف على هذه الحال معذبا، يقول المقالح[24]:

انتظر المساعدة الكريمة يا بن ذي يزن
سنرفض أي حل سوف يأتينا مع السفن
سيرفض شامخا وطني
إذا سيزيف لم يحفل بصخرته
ويقذفها إلى أسفل
فمن ذا غيره يفعل
بحق الحب دعه يصارع المحتل
سيفشل مرة ..
لكنه قادم المرات لن يفشل.

يستوحي الشاعر هنا من شخصية سيزيف المعذب رموز الإصرار وتكرار المحاولة لتحقيق النصر، ويرفض أن يكون هناك استسلام، ويطلب من شخصية

سيف بن ذي يزن الأسطورية أن تتسم بالقوة والثبات على تحقيق النصر، وأن تثبت في انتظار المساعدة الكريمة، وأن لا تقبل بالحلول التي تأتي من وراء البحار؛ لأنها دائما ما تكون صورة من صور الهزيمة حتى وإن كانت عناوينها نصرا، بل إن الشاعر يلح على شخصية سيف بن ذي يزن أن يرفض في كل مرة، وأن يعيد محاولة المقاومة والجهاد مرة ومرة.. لأنه إن فشل مرة سيكلل بالنجاح في المرات الأخرى مهما طال زمن الحرب، ومهما كان ثمن المقامة، والشاعر في موقفه هذا لا يندمج بشكل سطحي مع شخصيته الأسطورية بل إنه يتفاعل معها لتلهمه معاني الصمود والمحاولة.

2. شخصية عوليس(Ulysse) / (أوديسيوس) (Odysseus):

أوديسيوس أو عوليس هو ملك إيثاكا الأسطوري، ترك بلده كي يكون من قادة حرب طروادة، وصاحب فكرة الحصان الذي بواسطته انهزم الطرواديون بعد فوزهم بالحرب فقد أوديسيوس صديقا عزيزا فأخذ يلعن الآلهة فغضب منه إله البحر بوسيدون فعاقبه بأن تاه في البحر عشر سنين لاقى فيها أهوالا كثيرة. ذكرت قصته في حرب طروادة في ملحمة الإلياذة لهوميروس كما أنه بطل ملحمة الأوديسة لهوميروس أيضا[25]، ولكن الأسطورة تركز على عودة عوليس غلى وطنه وزوجته بعد طول غياب، لتمثل هذه الأسطورة عند الشعراء أيقونة العودة إلى أرض الوطن، يقول المقالح[26]:

على كل الدروب بكل منتجع
طيوف داميات الياس والوجع
تفتش عنك يا عوليسنا المفقود في فزع
وتسأل كل عابرة ضبابية
ولامعة سرابية وما زالت مشردة

لجأ الشاعر المعاصر إلى هذه الشخصية الأسطورية لما تحمله من قوة على التحمل والصبر في سبيل العودة إلى الوطن، ونجده في باقي القصيدة يعاتب ابن ذي

يزن لأنه لم يكن كعوليس الذي تعرض إلى كل أشكال الأذى والعذاب ولكن ذلك لم يثنيه عن العودة إلى وطنه والتقاء الشاعر بهذه الشخصية الأسطورية ((يتجلى في علاقة التحام أو ذوبان يشكل المستوى الذاتي الذي يؤسس لبناء الهرم الشعري وطرح الرؤية النفسية والفكرية أو الاجتماعية والسياسية من خلال الذات الأسطورية ضمن تراسل وانصهار العلاقات الإيحائية))[27]، وربما تكون هنا إشارة من الشاعر إلى أن الخطأ وارد في أي مرحلة من مراحل القيادة، ولكن غير المبرر أن يستمر القائد في خطئه مكابرا رافضا النصح، والعودة إلى سواء السبيل.

3. شخصية بينلوب (Pénélope):

بينيلوب أو"بينيلوبي" إبنة إيكاريوس والحورية بيريبويا، وزوجة أودوسيوس ووالدة تيليماخوس، وقد ذكرها هوميروس في الأوديسة وصورها على أنها امرأة شابة رائعة الجمال، حميدة الخصال، كريمة، ذكية، فطنة، وزوجة وفية لأوديسيوس الذي غيبته الحرب عنها، حيث ظلت ترفض الخاطبين الذين تقدموا لها طوال غيبة زوجها في رحلته الطويلة حتى عاد إليها في النهاية إليها[28]، لتتحول هذه المرأة إلى رمز للصبر والثبات على العهد، يقول المقالح[29]:

أيا عوليس بنلوب شاخ بكفها المغزل
وجف الثدي والحبل
جموع الراغبين الخاطبين وصالها ترحل
وما باق هنا غير اللصوص السارقي الأعراض والمحتل
أترضى أن تسلم نفسها للعار
هل تقبل؟؟؟
وهل عانقت ليل الغربة السوداء
ووجه الغربة الخرساء
لغير خلاصها من قبضة العداء

إذا تتبعنا التجربة الشعرية المعاصرة نجد أن الشاعر المعاصر حين وظف الشخصية الأسطورية توحد وتمازج مع البطل، وكان غرضه في ذلك إطلاق العنان لخياله وتخليد الفكرة التي يطرها خلود الشخصية الأسطورية التي وظفها، وهو يصر على الرمز الأسطوري؛ لأنه يعلم أنه يفتح له أبوابا عريضة لتقصي تجربته الخاصة للشخوص الأسطورية وإطباقها على تجربته الذاتية، وبذلك حملت على الشاعر عبء تجربته الخاصة من جهة ومن جهة أخرى حملت وجها شموليا في التعبير عن التجربة الإنسانية العامة[30]، وفي هذا المقطع من القصيدة يستوحي الشاعر من شخصية بنلوب الثبات على العهد والصبر في سبيل تحقيق الحلم، إنه إصرار على الحق الضائع حتى يعود، مهما تكاثفت الضغوط وتنوعت أشكال الإغراء.

ج– شخصيات السير الشعبية:

سعى المقالح في أشعاره إلى استحضار شخصياته من الحكايات الشعبية، وكثيرا ما كان يكسب تلك الشخصيات طابعا معبرا عن تجربته الشعورية، ويلبس الشخصية التراثية التي اختارها لباس المواقف الذي يتبناه، لذلك نجد أن الشخصيات التي لعبت أدوارا على مسرح قصائده تتلون بلون أحاسيسه ومشاعره، ومن بين الشخصيات الشعبية التي استحضرها المقالح نجد:

1– شخصية السندباد:

السندباد شخصية خيالية من شخصيات ألف ليلة وليلة، وهو بحار مغامر من بغداد زار أماكن كثيرة وخاض ألوانا من المخاطر، فصار الحيوانات الضارية، والوحوش، مردة الجن .. وكان في كل مرة ينجو من الموت بأعجوبة[31]، وقد لجا الشاعر إلى توظيف هذه الشخصية الأسطورية لأنه وجد فيها المعادل الموضوعي للتعبير عن موضوعه؛ لأن الحرية رديف الشعر تحتاج إلى رحلة ومغامرة وتضحية، يقول المقالح[32]:

تتبعت أثار أقدامها في المغارات

فوق المحيطات عبر جميع البلاد

سألت الملايين من عاشقيها

سألت الطيور التي رافقت رحلة السندباد

إن الكتابة الشعرية رحلة إلى عالم مليء بالمغامرة والمخاطر، أين تصبح ذات الشاعر فيما هي ترتاد ((لحظة المكاشفة مستقرا تتلاقى فيه الأبعاد جميعها: يطلع التاريخ الذاتي من وعي الشاعر ولا وعيه، ويمضي في حركة مشبعة بالحنين، طافحة بالتحنان، لملاقاة التاريخ الجماعي (القاع الأسطوري) ويغور فيه))[33]، وهنا يجد الشاعر نفسه ملزما بأسطرة لغته؛ لأن ((أسطرة المؤلف لنصه، أو استلهامه لأسطورة ما لا يكمنان من إعادة إنتاج ذلك المنجز بل تفجيره برؤى ودلالات جديدة، تحمل موقفا من الراهن بمعنى عصرنة الأسطورة على المستويين الدلالي والبنائي، وتحويل النص المؤسطر من كونه عملا قيد الاكتمال وذلك بالقراءة النتيجة له التي تعيد كتابته من جديد، وهي تحاول تفكيك ما يتناسل فيه من إحالات نصية تزيد ما هو خارج نصي عمقا وثراء وتعددا في مستويات التأويل))[34].

2- شخصية عروس البحر:

عروس البحار واحد من كائنات البحار الخيالية التي اختلفت الروايات في وصف شكلها التي يشترك في أنه جسم يجمع بين امرأة حسناء وسمكة، وأنها كانت تغري الرجال فيتبعونها فيهلكون في البحار، وقد استدعى الشاعر هذه الشخصية لأن واقع الحقيقة مماثل لحال عروس البار فهي مطلب جميع الناس، وهي في الوقت نفسه في عصمة عنهم، يقول المقالح[35]:

سألت الطيور التي رافقت رحلة السندباد

عروس البحار التي عذبت كل عصر

متى تمسح الرعب عن عصرنا والرماد؟

لقد كان السعي الدائم وراء الحقيقة طموحا سعى إليه الإنسان منذ الأزل، وكان الشاعر قد وجد بلاده تعيش تمزقا على مستوى علاقة الإنسان بأخيه

الإنسان، وهذه حقيقة أرقت الشاعر وجعلته يلح في فهم علاقة الإنسان بالإنسان وعلاقة الإنسان بالأرض، ولكن في كل مرة يجد نفسه يخوض رحلة عسيرة مليئة بالمخاطر، تنتهي به إلى أجوبة غير يقينية، فحال الحقيقة التي يبحث عنها كحال عروس البحر التي حيرت البحارة والصيادين والمغامرين وأفضت بهم إلى الضياع في غياهب البحار.

3– شخصية سيف بن ذي يزن:

كانت الشخصية العربية حاضرة في الشعر المعاصر من خلال شخوص بعض النماذج التي تحولت سيرتها إلى أسطورة تحكيها العرب، ومن هذه الشخصيات شخصية سيف بن ذي يزن التي تردد صداها في الحكايات العربية القديمة، ولأن العودة إلى التراث تحمل في طياتها رغبة في استدعاء الماضي، ودفع عجلة الحاضر، والمضي قدما نحو المستقبل فإن عودة المقالح إلى التراث كانت عودة إلى الأصول والمنابع الأولى للتفكير الإنساني البسيط، حتى وإن كانت هذه العودة رغبة من الشاعر في استعادة وضع آني مضى وانقضى، فإن هذه العودة تكشف عن ((الرغبة في استئناف التاريخ من جديد وعن الحنين غلى استعادة غبطة البدايات الأولى، والتغني بأمجاد الخلافة، أي الحنين إلى الجنة الأرضية))[36]، يقول المقالح[37]:

سفحنا عند ظلال الدهر تحت قيودنا ألفا
ونصف ألف
من أعوامنا العجفا
وأنت مشرد وبلادنا تدعوك " واسيفا "
أتستجدي لها في غربة المطار؟
أتحرث في الفضاء تعاتب الزمن الغريب؟
وتسفح تحت كل سحابة يا سيفا من عينيك الأشعار

يحتاج تعامل الشاعر مع الشخصية التراثية إلى إدراك أبعاد الشخصية التي يتعامل معها؛ لأنه حين يتكئ على الإشارات التاريخية التي يتخذها رموزا ومرايا لرؤاه

يحسن به أن يوفق بين ما تتصف به هذه الشخصية من معالم ومواقف وبين ما يسعى الشاعر إلى تأسيسه في شعره، ويبدو أن شخصية سيف بن ذي يزن لها رنينها التاريخي التي يضفي عليها هالة أسطورية ويحولها إلى رمز أسطوري للبطولة والتحدي والعزم، فهو الملك اليمني الذي طرد الأحباش من اليمن، بل إنه الشخصية الأسطورية التي خلصت الزوجة حين اختطفها الأحباش واستعادتها منهم، فلا ريب إذن أن يحتاج يمن اليوم إلى واحد كسيف يحرره من الظلم والقهر والعبودية.

4- شهرزاد / شهريار:

لا يمكن أن ننكر تأثر الآداب العالمية بمؤلف ألف ليلة وليلة الذي يرى بعض الدارسين أنه ينتمي إلى التراث الإنساني العالمي، وهنا نجد أن الشاعر كان يستمد من شخصيات قصص ألف ليلة وليلة معاني دالة الصراع من أجل البقاء، يقول المقالح[38]:

وتشرب يا شهريار دماء الجراح
فلا شهرزاد أطلّت
ولا لاح وجه الصّباح

نجد هنا تتجلّى أسطورة شهرزاد و شهريار تجلّيا تامّا صريحا من خلال الإشارة إلى الثّورة والتّحدّي، حيث جعل الشّاعر من شهرزاد الطّبيب الحاذق الذي نجح في علاج الملك شهريار من مرضه المزمن الذي يؤدي بكل نسائه إلى الموت والهلاك، والشاعر يحلم بعالم آخر في أحضان التراث ويسعى إلى التخفيف من شدة حزنه حين ((يعيش سذاجة الأحلام الأسطورية وعفويتها))[39]، وقد وظّف الأسطورة الشاعر توظيفا عكسيا، أحال فيه الثّورة إلى جبن واستسلام وذلك حين ربط اسم شهرزاد بالصّباح، وللصّباح أو الفجر دلالته في « ألف ليلة وليلة »، فالفجر يعني توقّف شهرزاد عن الحكي، كما يعني العفو عنها، فكلّما أدرك شهرزادَ الصّباحُ، ضمنت يوما جديدا في حياتها، وبهذا الشكل يتخذ الرمز الأسطوري حالة

مغايرة عما كان عليه في صورته الأولى، ويعتمد الشاعر في ذلك على خلفيته الإبداعية التي تتناسب وحالته الشعورية، فيتعامل مع الشخصية الأسطورية وفق ما يمليه عليه شعوره ((فيشكل مجموعة من التراكيب الدلالية تتلاحم فيها الصورة على نحو خفي وتتأسس فيها أشكال مبتكرة ليست روابط إيحائية تحكمه بل هي الوحدة النفسية الإيحائية التي تحكمها الذات الحديثة من خلال الرمز الجديد في دلالته الجديدة، التي لا يمكننا تخريجها إلا بقراءة حديثة تراعي الأساس الجمالي والمعرفي الذي يمزج المتعارض، ويوحد المتناقض، ويحطم صورة المألوف في ذاكرتنا ليفتح أمامها أفقا غامضا))[40].

لقد فرضت ظروف اليمن السعيد على المقالح أن يبوح بما يختلج في صدره من الهموم التي يشترك فيها معه أبناء الوطن الواحد الذي ظل يعاني أهوال التقسيم والتفتيت والمذهبية البغيضة التي قسمت المسلمين أبناء الوطن الواحد إلى جماعات وشيع يستغلها السياسيون حسب ما تقتضيه مصلحتهم الفردية وربما كان للأجنبي نصيب في هذه المصلحة.

الأكيد أن المقالح بصفته الشاعر لسان الأمة كان يسعى من خلال أشعاره التي ضمنها الرمز والأسطورة والتراث أن يقول ما ينوي اليمنيون قوله، إنه يرفض أن يظل الوطن أسير المطامع السياسية، والرؤى الحزبية الضيقة التي لا تراعي مصلحة الوطن بقدر ما يهمها مصلحة البراغماتيين.

الهوامش:

1- الدكتور عبد العزيز المقالح: شاعر وناقد يمني معاصر من مواليد عام 1937م، له حضور متميز على الساحتين اليمنية والعربية، ومساهمة في تشكيل ملامح الحداثة الشعرية العربية رؤية وفناً، حصل على العديد من الجوائز منها: جائزة اللوتس(1986)، وجائزة الثقافة العربية، اليونسكو، باريس (2002)،

وجائزة "الفارس" من الدرجة الأولى في الآداب والفنون من الحكومة الفرنسية، (2003) .. وله عديد الدواوين، منها: لابد من صنعاء، رسالة إلى سيف بن ذي يزن، هوامش يمانية على تغريبة ابن زريق البغدادي، عودة وضاح اليمن، الكتابة بسيف الثائر علي بن الفضل، الخروج من دوائر الساعة السليمانية، أوراق الجسد العائد من الموت، أبجدية الروح ..

2- جابر قميحة، التراث الإنساني في شعر أمل دنقل، ط1، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، والإعلان، القاهرة 1987، ص18.

3- إبراهيم الرماني، الغموض في الشعر العربي الحديث، ط01، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991، ص288.

4- كاملي بلحاج، أثر التراث الشعبي في التشكيل القصيدة العربية المعاصرة، (قراءة في المكونات والأصول) دراسة، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2004، ص26.

5- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر (قضاياه وظواهره الفنية والاجتماعية)، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1967، ص207.

6- محمد لطفي اليوسفي، في بنية الشعر العربي المعاصر، سراس، تونس، 1985، ص11.

7- إبراهيم الرماني، الغموض في الشعر العربي الحديث، ص57.

8- علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت)، ص18.

9- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر(قضاياه وظواهره الفنية والاجتماعية)، ص207.

10- علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، ص20.

11- كاملي بلحاج، أثر التراث الشعبي في التشكيل القصيدة العربية المعاصرة، ص17.

12- عبد الرضا علي، الأسطورة في شعر السياب، ط01، سلسلة دراسات، منشورات وزارة المعارف والفنون، العراق، 1978، ص105.

13- صلاح عبد الصبور، الأعمال الكاملة (أقول لكم عن الشعر)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1992، ص150.

14- زكي العشماوي، أعلام الأدب العربي الحديث واتجاهاتهم الفنية، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1995، ص158.

15- علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، ص55.

16- كاملي بلحاج، أثر التراث الشعبي في التشكيل القصيدة العربية المعاصرة، ص56.

17- علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، ص44

18- غالي شكري، شعرنا الحديث إلى أين؟ دار الشروق، ط01، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص139.

19- محمد لطفي اليوسفي، لحظة المكاشفة الشعرية، إطلالة على مدار الرعب، الدار التونسية للنشر، تونس، (د.ت)، ص120.

20- أمين سلامة، معجم الأعلام في الأساطير اليونانية والرومانية، ط02،، مؤسسة العروبة للطباعة والنشر، مصر، 1988، ص239.

21- كاملي بلحاج، أثر التراث الشعبي في تشكيل القصيدة العربية المعاصرة، ص55.

22- عبد العزيز المقالح، ديوان لابد من صنعاء، دار العودة، بيروت، (د.ت)، 1986، ص80-81.

23- عليا الداية، رموز أسطورية في مسرح وليد خلاصي (دراسة جمالية مقارنة)، ط01، دار الحوار، سوريا، 2010، ص20.

24- عبد العزيز المقالح، ديوان رسالة إلى سيف بن ذي زن، دار العودة، بيروت، (د.ت)، 1986، ص288-289.

25- أمين سلامة، معجم أعلام في الأساطير اليونانية والرومانية، ص54.

26- عبد العزيز المقالح، ديوان رسالة إلى سيف بن ذي زن، ص29-30 .

27- محمد فتوح أحمد، الرمز والرمزية في الشعر العربي المعاصر، ط03، دار المعارف، القاهرة، 1984، ص133.

28- أمين سلامة، معجم أعلام في الأساطير اليونانية والرومانية، ص133.

29- عبد العزيز المقالح، ديوان رسالة إلى سيف بن ذي زن، ص30.

30- عبد الرضا علي، الأسطورة في شعر السياب، ص232.

31- عبد الحكيم شوقي، موسوعة الفلكلور والأساطير العربية، ط01، دار العودة، بيروت، 1982، ص96.

32- عبد العزيز المقالح، ديوان لابد من صنعاء، ص80-81.

33- محمد لطفي اليوسفي، لحظة المكاشفة الشعرية، إطلالة على مدار الرعب، ص167.

34- نضال الصالح، النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، دراسة منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002، ص176.

35- عبد العزيز المقالح، ديوان لابد من صنعاء، ص80-81.

36- مها حسن القصراوي، الزمن في الرواية العربية، ط01،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2004، ص184.

37- عبد العزيز المقالح، ديوان رسالة إلى سيف بن ذي زن، ص282-283.

38- عبد العزيز المقالح، ديوان لابد من صنعاء، ص105-106.

39- علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، ص42.

40- إبراهيم الرماني، الغموض في الشعر العربي الحديث، ص176.